

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا أبو بكر الصديق - الدرس (3-5) : خلافته وإخلاصه في الخلافة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-1994

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

ينبغي على المسلم أن يكون بين محتوياته سيرة الصحابة الذي نص عليهم الكتاب :

أيها الأخوة، مع الدرس الثالث من سيرة سيدنا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، تعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

" ربوا أولادكم أو أدبوا أولادكم على حب نبيكم، و حب آل بيته و تلاوة القرآن "

(ورد في الأثر)

كيف يترجم هذا الحديث؟ ترجمه سيدنا سعد بن أبي وقاص، حينما قال: كنا نعلم أبناءنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلمهم السور من القرآن، فإذا أردت أن تنشئ أولادك على حب رسول الله عليه الصلاة والسلام ينبغي أن تبصرهم بكلماته، بأخلاقه، برحمته، بعلمه، هذا هو العمل الإيجابي لتنشئة أولادك على حب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونحن الكبار من باب أولى أننا إذا أردنا أن نعرف النبي عليه الصلاة والسلام فلا بد أن نقرأ سيرته، و إذا أردنا أن نعرف هؤلاء الذين رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم فلا بد كذلك من قراءة سيرتهم، ولا تنسوا أيها الأخوة حديث عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله)

فأنت إذا قرأت سير صحابة رسول الله فأنت مع النخبة الممتازة من البشرية .

بلغ الناس ولو آية :

قد نعيش في زمن الناس فيه حثالة، وفيه من اللؤم، ومن الخسة، ومن الدناءة، ومن الأنانية، ومن القسوة، ومن السقوط، ومن الانحطاط ما لا سبيل إلى وصفه .

أوضح لكم هذا بمثال: أنت في أشد حالات الجوع، وعندك قطعة لحم من الطراز الأول مشوية بطريقة رائعة، وإلى جانبك أطباق من المقبلات، أليس هذا الطبق من اللحم أنفس طعام تأكله؟ فقطعة اللحم نفسها لو تركتها في جو حار سبعة أيام لظهرت منها رائحة لا تطاق، هي نفسها، فالإنسان إذا اتصل بالله عز وجل صار كاملاً، فإذا أعرض عنه صار فاسداً منحرفاً، فمشكلة الناس اليوم أنهم إذا جلسوا في بيوتهم مع أصدقائهم، في ندواتهم، في سهراتهم، في لقاءاتهم، في احتفالاتهم، في أحزانهم، في سفرهم، في حضرهم، في لقاء عابر، في لقاء مبرمج، في لقاء مدروس، يتحدثون عن بعضهم بعضاً، وقد يقعون في غيبة و نميمة أو نحوهما، فيكونون في سخط الله سبحانه، والناس كما نرى قد انحرفوا وقصروا، فالحديث عن القبايح يشيع في المجلس الشعور بالكآبة و الانقباض، لكن الحديث عن الكمال الإنساني، عن نماذج بشرية رائعة جداً، عن نماذج بشرية متفوقة، هذا يدفع إلى الكمال .

فأنا أنصح أختوتنا كمقدمة لهذا الدرس، فهل بيننا أحد من أخواننا الكرام ليس له أهل، ليس له بيت، ليس له أولاد، ليس له أخوات، ليس له أقارب، هل هناك إنسان ليس له لقاءان أو ثلاثة في الأسبوع، لا يسهر مع أخوانه، لا أحد ليس له نشاط اجتماعي، في هذه اللقاءات عن أي شيء تتكلم؟ عن الأسعار أو غيرها، شيء يدعو للانقباض، فوطن نفسك أن تبلغ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ولو آية، ووطن نفسك أن تحدث الناس عن سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام، و عليك أن تتعلم وتعلم، فإذا تعلمت وعلمت أوكد لك أنك أفضل مخلوق على الإطلاق، من أين جئت بهذا الكلام؟ طالبني بالدليل، عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"

(أخرجه البخاري في الصحيح عن عثمان)

تجاوز ذاتك، تجاوز مصالحك، تجاوز الظروف التي يعاني منها الناس جميعاً، انطلق إلى خدمة الآخرين، انطلق إلى تعليمهم، انطلق إلى الأخذ بيدهم، فهذه الدروس التي من هذا القبيل هي ثمار يانعة .

إليك مثال من إحدى الشخصيات البشرية الفذة التي ينبغي الاقتداء بها :

نحن الآن مع صحابي جليل، يعد من قمم صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، بل أعلاهم قدراً على الإطلاق، صحابي جليل والله لو وزن إيمان الخلق مع إيمانه لرجح، صحابي جليل ما ساء رسول الله عليه الصلاة والسلام قط، يعني هذا النموذج الفذ الرائع ألا ينبغي أن نقندي به، أن نتمثله ولا سيما وأنتم تعلمون أن لكل واحد منا شخصية يتمنى أن يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، فإذا سألت عن الشخصية التي تتمنى أن تكونها، فلا بد من شخصية فاضلة تستقي منها، وترتوي من معينها، فالمؤمن يتمنى أن يكون من الذين رضي الله عنهم و رضوا عنه، من الذين أحبوا الله و أحبهم الله، من الذين أخلصوا دينهم لله فأخلصهم الله بخالصة التقوى .

هذا الصحابي الجليل أو من والله ولا أبالغ أنه يعد بحق، كما قال المؤرخون: المؤسس الثاني للإسلام، لأنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الذين دخلوا في دينه أفواجاً قد خرجوا منه أفواجاً، فالشيء الذي وصله بسرعة تفقده بسرعة، من أخذ البلاد بغير حرب، يهون عليه تسليم البلاد .

من المواطن الذي يشهد للصدیق صلابته في أخطر الساعات يوم وفاة الرسول:

هؤلاء الذين آمنوا بالتقليد وبالعموية، آمنوا لأن الناس جميعاً آمنوا، دخلوا في هذا الدين لأن الناس جميعاً دخلوا فيه، هؤلاء سريعاً ما خرجوا من هذا الدين، لذلك ظهرت الردة، بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام تضعض الصحابة أيضاً، وذلك لأن أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم ما كانت نفوسهم مهيأة لتلقي نبأ وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، شيء فوق الحسبان، فوق أن يتوهما هذا الشيء، فضلاً عن أن يعاينوه، أيموت محمد عليه الصلاة والسلام؟ أعوذ بالله، فذلك هزّ هذا النبأ أركان عملاق الإسلام، حتى قال: "والله من يقل إن محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام قد مات لأضربن عنقه، إنه لم يمت، ذهب إلى ربه وسيعود"، كل أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام مادت بهم الأرض وتزلزلت، ولم يكن إلا هذا الصحابي الجليل الذي بقي كالجبل الأشم، على الرغم من شدة حبه للنبي وتعلقه به ووفائه له بقي صامداً كالجبل، قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن لهذا الصديق إلا هذه الكلمة لكفت، احتفظ برباطة جأشه في أحلك الساعات، بقي واقفاً على قدميه، وقد تزلزلت من تحت أصحاب رسول الله الأرض .

شهادة النبي للصدیق بأن يوم بالناس دليل على أنه أعلى صحابته قدراً وعلماً وإماناً :

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ:

" مَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ فَقَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، قَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ ، فَقَالَ : مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكَ صَوَّاحِبٌ يُوسُفُ فَاتَاهُ الرَّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري)

إشارة إلى أنه الخليفة .

السيدة عائشة ابنته تعرف أن أباه رقيق القلب، كثير البكاء، لا يحتمل أن يقف مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذا من شدة الوفاء، فقالت:

" يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب، وأنه إذا قام مقامك غلبه البكاء، فمر عمر أن يصلي بالناس، وحين روجع النبي عليه الصلاة والسلام غضب أشد الغضب، وقال: " مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، قَالَ : مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَعَادَتْ ، فَقَالَ : مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكَ صَوَّاحِبٌ يُوسُفُ فَاتَاهُ الرَّسُولُ فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري)

إنه إصرار على أن يصلي مكانه الصديق، وهذه شهادة من النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الصحابي الجليل، بأنه

أول أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام قدراً، وعلماً، وإيماناً .

انظر إلى موقفه الحكيم في إصلاح الخلاف الذي نشب بين المسلمين يوم السقيفة:

صلى الصديق مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام وامتثل الأمر، وهو لا يدري أو لعله كان يدري أنه في تلك اللحظة كان يتسلم الراية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملها من بعده، لكن هذا الصحابي الجليل حينما توفي الله رسوله، وقبضه إليه، واختار النبي الرفيق الأعلى، وانتقل إلى الدار الآخرة، فوجئ أن فتنة كادت أن تقع بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيهم المهاجرون و فيهم الأنصار، المهاجرون أصحاب السبق في الإسلام، و الأنصار هم الذين آووا و نصرُوا، فمن أيهم يكون خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أمن المهاجرين، أم من الأنصار؟ لذلك واجه هذا الصحابي مشكلة وفتنة ليست في صالح المسلمين، مع أن علماء السيرة يؤكدون تأكيداً شديداً أنّ هذا الصحابي الجليل كان أبعد الناس عن أن يتمنى أن يكون مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام، كان عازفاً عن الخلافة، والنبي عليه الصلاة والسلام أعطانا قاعدة ذهبية، هي: "طالب الولاية لا يؤلّى" لأنه يرغب في مغانمها، والولاية ليست مغنم بل مغارم، أعباء، كما قال سيدنا عمر: لست بأفضل من أحدكم ولكنني أثقلكم حملاً .

لكن هذا الصحابي الجليل لا يحتمل أن يرى فتنة تتشب بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يحتمل ذلك، وهذا شأن المؤمن، المؤمن يعنيه أمر المؤمنين، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

كيف عالج الصديق هذا الأمر ؟

سيدنا الصديق وضع ميزاناً تطمئن نفوسهم إليه، الميزان أخذه من القرآن، ماذا قال الله عز وجل؟ قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(سورة التوبة الآية: 100)

المهاجرون قبل الأنصار منزلة، و قدموا في الآية، والسابقون منهم لهم شأن آخر، ولهم مكانة عليّة، فسيدنا الصديق استناداً لهذا التقييم القرآني أراد أن يجعل الخلافة في المهاجرين، و فيمن هم قمم الصحابة الذين شهد لهم النبي عليه الصلاة والسلام،

" لو كان نبي بعدي لكان عمر "

(ورد في الأثر)

وقال أيضاً:

" أبو عبدة الجراح أمين هذه الأمة " .

(ورد في الأثر)

فقال: " يا عمر، مدّ يدك لأبياعك، فسيدينا عمر قال: أنت أفضل مني، فقال الصديق: بل أنت أقوى مني، فقال عمر: قوتي إلى فضلك، وأنا خادم لك"، فسيدينا عمر في هذه الأزمة، وتلك الفتنة همّ أن يتكلم، لكن سيدينا الصديق أشار إليه أن اسكت، وتولى هو الكلام، وقال: " يا معشر الأنصار، إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل"، فالكلام الحكيم، الكلام الذي يطيّب القلب، الكلام الذي يثلج الصدر، هكذا بدأ الصديق قوله، ثم راح يتحدث عن وحدة المسلمين، وعن فضل الأنصار، وعن فضل المهاجرين، وعن وصية النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: " إني أرشح للخلافة أحد اثنين: عمر بن الخطاب الرجل الذي أعز الله الإسلام به، وأبا عبيدة بن الجراح الذي وصفه النبي الأمين أنه أمين هذه الأمة، واقترب منهما أبو بكر وتوسطهما، ورفع ذراعيهما بكتفا يديه، وقال للناس: لقد رضيت أحد هذين الرجلين عمر وأبي عبيدة، وارتعدت يد عمر كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة، وغطى أبو عبيدة عينيه الباكيتين في حياء شديد، وصاح عمر: لا بل أنت ". .

أخواننا الكرام، الصحابة الكرام كانوا يعرفون أقدار بعضهم بعضاً، قال سيدينا عمر: " والله لئن أقدم فيضرب عنقي في غير إثم، أحب إلي من أن أوامر على قوم فيهم أبو بكر، هذا مشهد مسجل له"، قال تعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

(سورة آل عمران الآية : 181)

الحقيقة ما غربت شمس ذلك اليوم إلا وانتهت هذه الفتنة بحكمة هذا الصحابي الجليل وموقفه الحازم، كان في الظل فإذا هو في وضح النهار يتحرك كأنه الفارس، كان يؤثر أن يكون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر أن واجبه اتجاه الإسلام كبير جداً لذلك شمر و أقدم، أي هناك أشخاص يتدخلون في الوقت المناسب فيفعلون المعجزات .

طالب الولاية لا يولى :

سيدينا الصديق يذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما يذهب إليه العباس يسأله أن يوليه الولاية، فأجابه عليه الصلاة والسلام:

" إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه " .

(ورد في الأثر)

الولاية عبء، أي مغرم وليست مغنم، ألم يقل سيدينا عمر لأحد ولاته: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، فقال عمر: إذا: فإن جاءني من رعيته من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، ثم قال له مستدركاً: إن الله قد استخلفنا على خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمسيت في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية " .

دققوا، فهذه قاعدة حكيمة، فالذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام وحي يوحى، قال تعالى :

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(سورة النجم الآية: 1-4)

إذًا: لو أن إنساناً عرض نفسه على الخلافة، بحسب هذه القاعدة، لا يجوز أن نوليه إياه

سبب الاضطراب بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة كان سبباً غريباً عنهم:

في الحقيقة أن الصحابة الكرام عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات التعاون والتكاتف، فالأصل ما كان بين الصحابة إلا الود، والوفاء، والحب، لكن هذا الموقف الذي جرى يوم السقيفة كما يقول علماء السيرة: كان هجيناً عليهم، ليس من عاداتهم، ليس من طباعهم، ليس من سجيّتهم، ليس من شأنهم، ليس من أخلاقهم، ليس من أخلاق المؤمنين المتنافس، لكن حصل هذا الاضطراب عقب وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام . ألم أذكر لكم من قبل، أن بين الأوس والخزرج في المدينة لما دخلوا في دين الله أفواجاً وأسلموا وحسن إسلامهم، واتصلوا بربهم، صاروا من الأخوة، والمحبة، والوفاء ما لا يوصف، أحد اليهود ألمه أن يكون هذا الوئام بينهم، فأرسل غلامه بقصيدة قيلت من قبل في هجاء بعضهم ، وجعل هذا الغلام يتلو على أسماعهم هذه القصيدة، يعني في ساعة غفلة بعضهم تحمس ورد آخر عليه بقصيدة أخرى، إلى أن نشب خلاف بين أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي بين الأنصار بالذات، فخرج عليهم النبي عليه الصلاة والسلام مسرعاً، وقال: أتختصمون وأنا بين أظهركم؟ فهذا موقف ليس أصيلاً فيهم، بل هو هجين بالنسبة لهم، هذا الموقف دخيل عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(سورة آل عمران الآية : 101)

فإنه عز وجل سمى هذه الفرقة كفراً، وهذا الشقاق كفراً .

من علامة صدق إيمان المؤمن أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه :

تقول: لا دخل لي، أنا مشكلتي محلولة، والمسلمون لهم الله عز وجل، هذا كلام ضعاف الإيمان، المؤمن الصادق يشعر أن كل مؤمن أخوه في الإنسانية و الإيمان، يعنيه ما يعنيه، يؤلمه ما يؤلمه، يفرحه ما يفرحه، إن أصاب مسلماً مكروه أصابه، و إن أصاب مسلماً خيراً أصابه، فهذه علامة صدق الإيمان . أيها الأخوة، أسألك بالله، هل تفرح لأخيك إذا تفوق، أو إذا ارتقى، أو إذا اغتنى، أو إذا تسلم منصباً رفيعاً، أو إذا تزوج، أو إذا اشترى منزلاً، أو إذا اشترى مركبة، أو إذا لمع اسمه أم تحسده؟ هنا تظهر علامة إيمانك .

البطولة تكمن في تحمل المسؤولية أثناء المحن والأزمات :

أحد الأدباء وصف إنساناً، وأنا أرى أن هذا الوصف ينطبق على سيدنا الصديق، قال: " كان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً " رقيق، نحيل، يحب الظل، لا يحب الظهور، لا يحب الاستعراض ولا

التبجح، ولا عرض العضلات، أي أن اتصاله بالله ومحبته لله عز وجل، وشعوره أن الله يحبه هذا يغنيه عن استجداء مديح الناس، وعن أن يزهو أمامهم، لذلك كلما اشتدت الرغبة في أن يظهر الإنسان فهذا ضعف في إخلاصه، كن عبد الله، شعور العبودية لله عز وجل شعور ثمين جداً، يعني رجل أواب، قره عينه في الصلاة، في الإنابة إلى الله، في خدمة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فجأة وجد نفسه في معمعة الأحداث، وهو المسؤول الأول

مثلاً: قد يكون الابن في حياة والده مرتاحاً، لكن فجأة يقبض والده، وهو أكبر أخوته، وهناك مسؤوليات، وأعمال، وأيتام، فوضعت المحنة أمامهم، لذلك في الحياة مجالات كثيرة للبطولة، وأنا أعرف شاباً حينما توفي أبوه ترك له أخوات، فلم يتزوج إلا بعد أن يسر لكل أخواته الزواج المناسب، والبيت المناسب، واطمأن عليهن جميعاً، ثم تزوج، فهذا بطل حقاً .

سؤال يطرح :

هناك نقطة مهمة جداً، أرجو أن تكون واضحة عندكم، وأنتم بحاجة إلى إدراكها فيما أعتقد، فأحياناً يأتيني أخ، يقول: أنا أشعر بكذا وكذا، وأنا متألم جداً من هذا الشعور، أو تأتيني خواطر أنزعج منها أشد الانزعاج، فماذا أفعل؟ أنا عندي مقياس دقيق، أقول لهذا الأخ: إذا جاعتك هذه الخواطر، هل تنزعج أو لا تنزعج؟ يقول لي: انزعج أشد الانزعاج، أقول له: فهذه ليست منك، إذاً: هذه دخيلة عليك، هذه من الشيطان، لا تعبأ ولا تخف، ولكن إذا جاعتك هذه الخواطر، وارتحت إليها، وركنت إليها، فهي منك، وهي علامة المرض الشديد، وعلامة التقصير

انظر إلى الفهم السليم والدقيق للإسلام عند أبي بكر عندما عالج مسألة مانعي الزكاة

أما المشكلة الأكبر فهي أنّ حياته كانت كلها مشكلات رضي الله عنه، والمشكلة الأكبر كما قلت قبل قليل: هي في الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، دخلوا بسرعة وبغفوية، بل دخلوا في هذا الدين تقليداً، إذاً: هؤلاء حينما توفي النبي عليه الصلاة والسلام طمعوا في أن يتخففوا من أعباء الإسلام، لا صلاة، ولا زكاة، ولا صيام، وطمعوا أن يبتدعوا لأنفسهم نوبات، فالقضية سهلة في نظر بعضهم، محمد نبي، وفلان نبي، فعادوا إلى عصبيتهم، فلذلك واجه الصديق موقفاً صعباً جداً، وهو أن معظم الذين دخلوا هذا الدين الجديد قد خرجوا منه وارتدوا، وهناك من يظن أنهم بقوا في بلادهم يتأهبون للقتال، وهناك من أتاه بمعلومات أنهم يستعدون للهجوم على المدينة، وها هم أعلنوا عداؤهم بأن بدؤوا بمنع الزكاة، فسيدنا الصديق لا تلين له قناة، قال: " و الله لو منعوني عقالاً بغير كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله عليه و سلم لقاتلتهم عليه بالسيف، لا يفرق بين الصلاة و الزكاة أبداً "، أي وقف موقفاً تهد له الجبال .

أحياناً الإنسان يختار أنصاف الحلول، يأخذ ويعطي، يكون مرناً، لكن الصديق أمام قضية مبدأ، أما الآن أصحاب مصالح، يضحى بالخمسين ليأخذ المئة، يقفون عند أنصاف الطرق، يتفاوضون على أنصاف الحلول، لكن هذا

الصحابي الجليل، قال: " والله لو منعوني عقالَ بعيرٍ كانوا يعطونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه بالسيف "، و سأله سيدنا عمر هذا السؤال الحرج: كيف تقاتل قوماً يشهدون أنه لا إله إلا الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه من قالها، فقد عصم دمه و ماله؟ نقل عمر مقاتلتهم، قال الصديق رضي الله عنه: " ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم إلا بحقها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " **أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ** " .

(أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح)

سيدنا الصديق متذكر كلمة "بحقها"، قال و من حقها: " أن يؤدِّيَ الزكاة، فمن لم يؤد الزكاة لم يقلها بحقها، إذاً: لا بد أن يحاربهم " .

الحقيقة أن زعماء الأمم، القادة التاريخيون الذين تناط بهم مصائر الأمم، هؤلاء يحملون صفات فذة في شخصياتهم، أولى هذه الصفات: أن يكونوا رجال مبادئ، بالمبادئ لا توجد مساومات على مستوى المبادئ المساومة غير مقبولة، فكان الصديق في هذا المستوى الرفيع .

سيدنا عمر يقول: "فما هو إلا أن شرح الله صدري لرأي أبي بكر"، أي بعد قليل ألهم الله سيدنا عمر رأي أبا بكر ورآه صواباً، وابن مسعود رضي الله عنه، قال: " لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهك فيه لولا أن الله منَّ علينا بأبي بكر " دققوا في هذا الكلام .

وكان سيدنا عمر في أعلى درجات الحكمة، فإذا رأى من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام تملماً أو اعتراضاً أو انتقاداً أو رأياً لا يراه الصديق، ماذا كان يفعل؟ كان يتبنى هذا الرأي، ويعرضه على الصديق، فإذا وقف الصديق موقفاً صلباً تعلق به من دون أن يجعل مواجهة بين الصديق وبين أصحابه .

تتجلى حكمته حينما حرص على تنفيذ جيش أسامة طاعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام

فيروى أن النبي عليه الصلاة والسلام قبيل وفاته أمر أن يجيش جيش لحرب الروم، وأمر أن يكون على رأسه شاب يسمى أسامة بن زيد لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، لكن بعد أن توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام، فالصحابه رأوا أنه ليس من العقل أن ينطلق هذا الجيش لحرب الروم، بينما الجزيرة قد ارتد المسلمون فيها، فهل من المعقول أن يُوجَّه المسلمون جيشاً إلى أقاصي البلاد، وعندهم فتنة داخلية، والعاصمة مكشوفة، والناس قد ارتدوا، وأرادوا أن يكيّدوا للمسلمين؟ فصار هناك آراء متفاوتة .

يقول سيدنا عمر كما قلت قبل قليل: لعله رأى ذلك، أو لعله أراد أن يعرض على الصديق رأي أصحابه، " لو أنك جمدت هذا الجيش، لم ترسل هذا الجيش؟ لو أخرته لحرب المرتدين"، فلما أصر الصديق على إرسال الجيش، قالوا: إن هذا القائد صغير السن، ولا يعقل أن يكون كفتاً لهذه المعركة، فيقال: إن سيدنا الصديق قبض لحية عمر، وأمسكها بيده، وهزها هزاً شديداً، حتى كادت أن تتخلع بيده، وقال: " يا عمر ثكلتك أمك، أجبار في الجاهلية ،

خوَار في الإسلام؟ أتمنعي أن أجيش جيشاً جيشه رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أتمنعي أن أُولي على هذا الجيش أسامة بن زيد، وقد أمره رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ " هذا هو الإيمان ، نبي هذه الأمة يجيش جيشاً، وأنا لا أرسله، نبي هذه الأمة يعين قائداً وأنا لا أقره، فمن أنا؟ .

أبو بكر أعاد للأمة مشاربها وتمسكها بعقيدتها وأصالتها :

هذا هو الموقف الذي لولاه لقضي على الإسلام، ولما كنا نحن مسلمين، قلت لكم في بداية الدرس: يعد هذا الخليفة العظيم المؤسس الثاني للأمة الإسلامية، ولا تتسوا قول سيدنا ابن مسعود : لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لو لا أن الله منّ علينا بأبي بكر .
قال أبو بكر: " أنفذوا بعث أسامة، فو الله لو تخطفنتي الذناب لأنفذته كما أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام، وما كنت لأرد قضاء قضاه رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذا هو الإيمان، ونحن أيها الأخوة، إذا كلّفك الله بأمر تكليفي، أتتردد في إنفاذه؟ دققوا في هذه الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

(سورة الأحزاب الآية : 36)

انظر إلى تواضعه ؟

بالمناسبة ثم إن سيدنا أبا بكر مشى في ركاب سيدنا أسامة بن زيد القائد الفتى، لم يحتمل هذا القائد الفتى أن يركب على ناقه، وهو قائد الجيش، وخليفة المسلمين يمشي إلى جانبه، قال: " يا خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام لتركبن أو لأمشين، فقال الصديق و يريد أن يدعمه ، وأن يقوي مركزه: والله لا ركبتُ ولا نزلتُ، وما عليّ أن تغبرّ قدماي ساعة في سبيل الله " .

خلاصة القول من أعمال الصديق ومواقفه الجليلة أثناء خلافته :

وبهذه المواقف الحكيمة انتهت فتنة السقيفة، وحارب المرتدين، وقضى عليهم، وأنفذ الصديق الجيش الذي بعثه النبي عليه الصلاة و السلام لحرب الروم، وأقرّ على قيادته أسامة بن زيد حبّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذه المواقف التي وقفها الصديق كانت هي المواقف التي تثبتت الإيمان في نفوس أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وثبتت الإسلام .

والحمد لله رب العالمين